# الأمثال الشعبية مرآة عاكسة لثقافة المجتمعات

**د/ إبتسام غانم**

**المدرسة العليا لأساتذة التعليم التكنولوجي – سكيكدة –**

**مقدمـــة**

تعد الأمثال الشعبية من أكثر الأشكال التّعبيريّة الشّعبيّة انتشاراً وشيوعاً، ولا تخلو منها أيّة ثقافة، إذ نجدها تعكس مشاعر الشّعوب على اختلاف طبقاتها وانتماءاتها، وتجسّد أفكارها وتصوّراتها وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها ومعظم مظاهر حياتها، في صورةٍ حيّة وفي دلالةٍ إنسانيّةٍ شاملة، فهي بذلك عصارة حكمة الشّعوب وذاكرتها.

ولقد حظيت الأمثال الشّعبيّة بعنايةٍ خاصّة، عند الغرب والعرب على حدٍّ سواء، ولعلّ عناية الأدباء العرب بهذا الشّكل التّعبيري كان لها طابعٌ مميّز، نظراً للأهمّية التّي تكتسيها الأمثال في الثّقافة العربيّة، فنجد **ابن الأثير** يشير إلى أهمّيتها وهو يحيط المتصدّي لدراسة الأمثال علماً أنّ: « **الحاجة إليها شديدة، وذلك أنّ العرب لم تصغ الأمثال إلاّ لأسبابٍ أوجبتها وحوادث اقتضتها، فصار المثل المضروب لأمرٍ من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشّيء**».[1]

إن هذا الإنتاج الثقافي الشعبي يعد جزءا هاما من أجزاء الأدب الشعبي، فهو عالم ضخم وزاخر بالتجارب الإنسانية، يحمل في طياته القيم والأحكام والمعتقدات الشعبية وكذلك يترجم نوعية العلاقات الاجتماعية السائدة، كما أنه يهدف إلى تفسير جانب من الحياة الاجتماعية المتنامية الأطراف، المتعددة الأشكال، المفعمة بمختلف الألوان، والزاخرة بشتى الصراعات والتناقضات، فهو غني بالرموز المعبرة عن العقائد والأحداث الاجتماعية التاريخية، وعن تجربة الإنسان الشعبي، تلك التجربة التي تصور نظرة الإنسان الشعبي إلى العالم وإلى الإنسان ومشاكله الكبرى بأسلوب رمزي، وبالتالي فإن البحث في مجال الأمثال الشعبية في الحقيقة هو بحث في الحياة الاجتماعية وفي البناء الثقافي والاجتماعي للمجتمع الذي يتداولها.

## أولا: المثل الشعبي

لقد اعتنى العرب بالأمثال منذ القديم، فكان لكلّ ضرب من ضروب حياتهم مثل يُستشهد به، وبلغت عناية اللغويين العرب حدّا مميّزا عن سواهم، إذ كان المثل بالنّسبة إليهم يجسد اللغة الصّافية إلى حد كبير، فأخذوا منها الشّواهد وبنوا على أساسها شاهقات بنائهم اللغوي. ومن هنا فإنّ أوّل ما ينبغي على الباحث عن معنى كلمة « **مثل**» هو تقصّيها في معاجم اللّغة، ومن ثمّ النّظر فيما جاء في كتب التّراث وكتب الأمثال من تعاريف للمثل.

- **تعريف المثل في معاجم اللّغة:**

تعريف **عدلاوي**: « نعني بالمثل **لغة** التسوية والشبه».[2]

ويسرد **بن هدوقه** في كتابه **أمثال جزائرية** [3] مجموعة من التعريفات اللغوية التي جاءت على لسان بعض الأدباء الشعبيين، أو في بعض المعاجم منها:

تعريف **إبراهيم النظام**: « يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره: إيجاز اللفظ، إصابة المعنى، حسن التشبيه، وجودة الكتابة، فهو نهاية في البلاغة».

وقال **الزمخشري** في "أساس البلاغة" في شرحه لمختلف معاني المثل: « ومثل الشيء بالشيء: سوّي به وقدر تقديره».

أما **ابن منظور** فيعرف المثل في معجمه "لسان العرب"، فيقول: « المثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله».

أما عن تعريف **مجمع اللغة العربية** بالقاهرة، فنجده يقول في قاموسه "المعجم الوسيط": « المثل جملة من القول مقتطعة من كلام، أو مرسلة بذاتها، تنقل ممن وردت فيه إلى مشابهة بدون تغيير».

- **تعريف المثل في كتب التّراث وكتب الأمثال:**

**تعريف خدوسي**: «المثل الشعبي يعتبر صفوة الأقوال، وعصارة الأفكار لأجيال سبقتنا عبر التاريخ الإنساني، وهو زبدة الكلام الصادر عن البلغاء والحكماء، أجمع المتحدثون على صوابه للاستشهاد به في مواقف الجدل ومختلف ضروب الكلام».[4]

**تعريف عدلاوي**: « نعني بالمثل **اصطلاحا** ما ذكره أبو هلال العسكري من أن أصل المثل التماثل بين الشيئين في الكلام، كقولهم: كما تدين تدان، ومن قولك: مثل الشيء ومثله، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا».[5]

**تعريف الخوارزمي**: « المثل ما استعمله غير واضِعِهِ وهو يَقبَلُهُ، ووضَعَهُ في أثناء كلامِهم الخاصة والعامة... ».[6]

كما تضيف **بن فرحات** نقلا عن **قاسم**، أن المثل الشعبي يعد: « ... نتاجا ثقافيا واجتماعيا، يرتبط ارتباطا عضويا بوجود الجماعة الإنسانية نفسها...، تلك الجماعة التي أنتجته وتناقلته جيلا بعد جيل وحافظت عليه من الضياع والنسيان».[7]

❖ إن هذه التعريفات التي أوردناها عن المثل الشعبي، وحتى وإن وصفت الدلائل الظاهرة للمثل الشعبي من الناحية الشكلية والأدبية، إلا أن المثل الشعبي لا يحقق هذا الغرض فقط، وإنما يغوص في مدلولات نفسية اجتماعية وكذا مدلولات سوسيو-تاريخية أعمق، بل هو أداة تصف الواقع الاجتماعي للمجتمع في مراحله المتعاقبة.

فالمثل وليد البيئة التي أنتج في إطارها ووليد تجربتها الطويلة، إنه يتصل بكل مناحي الحياة الإنسانية، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن المجتمع الذي يحمل في تراثه هذا اللون من الأدب الشعبي هو مجتمع يزخر بتراث عريق، يبرز مستوى ذكائه وفكره.

**ثانيـــــا: الفرق بين المثل وسواه من الأشكال التّعبيريّة**

كثيراً ما نجد تداخلاً بين المثل وغيره من الأشكال التّعبيريّة كالتّعبير المثلي والقول المأثور (القول السائر) والحكمة، لذلك وجب التّمييز فيما بينها وتوضيح خصائص كلٍّ منها بمقارنة بعضها ببعض.

**أ- الفرق بين المثل والتّعبير المثلي:**

يقول محمد توفيق أبو علي نقلاً عن "**رودلف زلهايم**" (**Sellheim Rudolf**): « **يفترق التّعبير المثلي عن المثل في أنّه لا يعرض أخباراً معيّنةً عن طريق حالةٍ بعينها ولكّنه يبرز أحوال الحياة المتكرّرة والعلاقات الإنسانيّة في صورةٍ يمكن أن تكون جزءاً من جملة**».[8]

فالتّعابير المثليّة عباراتٌ قائمةٌ بذاتها تثري الكلام وتوضّحه وهي تصف شخصاً أو حالةً معيّنة كقولنا «**سواسيةٌ كأسنان المشط**». ويمكننا القول بأنّ التّعبير المثلي يعتمد أساساً على المجاز وهو أحد أنواع التّعابير الاصطلاحيّة في حين أنّ المثل قد يخلو منه مثل قولنا «**الجار قبل الدّار**».

**ب- الفرق بين المثل والقول المأثور:**

ويسمّى كذلك القول السّائر، ويقول **عبد الحميد بن هدوقه** في مقدّمة مصنّفه للأمثال الجزائريّة إنّ: « القول السّائر يُقرّ شيئاً واقعاً مثل قولهم « **رَانَا والمُوتْ وْرَانَا** » أو قولهم « **كَتْبَتْ التُّرْبَة** »، بينما المثل قد يتضمّن ذلك وقد لا يتضمّن، فعندما يتمثّل الرّجل الشّعبي بهذا المثل: « **رَاحَتْ جْوَابِي وعْشُورْ** » فهو لا ينصح ولا يقرّر، وإنّما يصوّر ذهاب أمواله فيما لا غناء له فيه، كما ذهبت أموال النّاس في العهد العثماني بين الجبايات والزّكوات ».[9] وبالتّالي فإنّ الأقوال المأثورة تُقرّ عموماً واقعاً معينا ولا تحوي معنى ضمنيا.

**ج- الفرق بين المثل والحكمة:**

يقول **محمد توفيق أبو علي**: « والمقصود من المثل الاحتجاج ومن الحكمة التّنبيه والإعلام والوعظ، فالمثل فيه الحقيقة النّابحة عن تجربة، تلك التّي نعتبرها أُمّاً لجميع أنواع المعرفة، أمّا الحكمة فهي تحديد شرطٍ سلوكّيٍ وقيمةٍ أخلاقيّة، وقد تصدر عن رؤيةٍ حدسيّةٍ دون تجريبٍ واقعي، وهي تمتاز بطابع الإبداع الشّخصي والعناية الأسلوبيّة المتعمّدة أكثر من المثل الذّي، وإن كان ذا نشأةٍ فرديّةٍ في بعض الأحيان، يطبعه الاستعمال والذّيوع بطابع الجماعة (...). إنّ في المثل عمقاً خاصاً لا تدركه الحكمة، مع أنّ كليهما من جوامع الكلم، إلاّ أنّ الحكمة تفيد معنىً واحداً بينما يفيد المثل معنيين: ظاهراً وباطناً، أمّا الظّاهر فهو ما يحمله من إشارةٍ تاريخيّةٍ إلى حادثٍ معيّنٍ كان سبب ظهوره، وأمّا الباطن فهو ما يفيد معناه من حكمةٍ وإرشادٍ وتشبيهٍ وتصوير ».[10]

فالحكمة إذن تتضمّن موعظةً أو نصيحةً أو عبرة، فمن الحكم قول الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) « **العلم ضالّة المؤمن** » أو قوله « **أغنى الغنى العقل وأفقر الفقر الحمق** ».

إذا فالحكمة هي كلمة ناتجة عن دراية وذات مضمون أعمق ونابعة من فلسفة ورؤية لدى الشخص، وهى فراسة وذكاء منبعهم علم ودراسة وثقافة معينة وفطنة مميزة، بينما المثل الشعبي هو حادث معين يشار إليه بجمل قصيرة على لسان أشخاص من عامة الشعب لا يشترط أن تربطهم صلة بنوع معين من الثقافة ولكن نطقهم لعبارة قصيرة مختصرة من خلال حدث معين قد يؤخذ به على أنه قول مأثور.

**ثالثـــا: خصائـــص ومميـــزات المثـــل الشعـــبي**

يمتاز المثل الشعبي بعدة خصائص ومميزات منها:

**الخاصية الأولى:** أن معظمه يقتضي نوعا من الإيجاز وجودة المعنى والاختصار والتركيز، فالميزة الأولى تظهر في أنها "... **أكثر ما تتسم من حيث مستواها بالإيقاع الخارجي التام أو الناقص ولكن هذا الإيقاع ثابت في الحالتين، والميزة الثانية هي الاتصاف بالإيجاز والدقة** ".[11]

فالمثل يأتي في أغلبه متشبعا بالنفحات الشعبية، جمله مركزة، نثرية أو شعرية أو مسجعة، شائعة بين جماعة من الناس، عامتهم وخاصتهم، تلخص موقفا أو تختصر تجربة مألوفة في الحياة.

**الخاصية الثانية:** أن المثل الشعبي يمثل فلسفة وحكمة الشعب الذي يمتلكـــــها ويـــــــرددها، إذ أن الأمثال تعبر عن: "**حكمة الشعوب وتجاربها الملموسة**".[12]

حيث تبقى الأمثال منبعا لا يعوض لشهادات تكاد أن تكون فريدة للثقافة الشفوية التي كانت وما تزال راسخة في الأذهان، فهي في الحقيقة تقدم لنا، بصورة أمينة الحياة الاجتماعية للشعوب في فترات مختلفة.

**الخاصية الثالثة:** أن المثل الشعبي، كجزء من التراث الشعبي، يقتضي في سيره وتداوله التناقل شفويا بين أفراد المجتمع الذين يتداولونه، فالمثل يحتل مكانة مرموقة في الإبداع الشفوي الشعبي، حيث تصرح **بلعربي** أن: " **الأمثال الشعبية ما هي إلا انعكاس للثقافة الشعبية فهي حية في ذاكرة الشعوب ولغتها وتصوراتها**".[13]

**الخاصية الرابعة:** أن المثل الشعبي لا يخضع لعملية التدوين أثناء نشأته، وهو غير منسوب إلى قائل محدد، والذاكرة الشعبية لا تعطي الحق لمعرفة قائل المثل الشعبي: " ... **ولا تحتفظ بتاريخها في صيغة المفرد، ولكنها تلتحم مع إبداعاتها الجمعية في صراعاتها المستمرة حيث تنتج أمثالها جماعيا**".[14]

فالمجتمع هو من أعاد خلق وإثراء المثل والحفاظ عليه في أبسط صوره المعروفة والمتنوعة، ولذلك فهو يعد ذاكرة الجماعة التي لا يطالها النسيان.

**الخاصية الخامسة:** أن الأمثال كما عبرت عنه **بلعربي**: " **تشكل مجموعة من المعارف المعبرة عن بنية اجتماعية واقتصادية معينة وعن نسق تقويمي خاص بهذه البنية**".[15]

فهي مرآة تعكس بصدق وأمانة قيم المجتمع وتقاليده الخلقية وأعرافه المعيشية، كما أنها تجري على ألسنة العامة وتشمل مواضيع مختلفة. والمثل في حد ذاته يعبر عن وضع معين وهو قار في صياغته، الشيء الذي يؤكد على

خصوصية المثل بالنسبة لأنماط الخطاب الأخرى، وما يربطنا بالمثل ليست الألفاظ أو الجملة المعبرة عنه وإنما الموضوع الذي يرمز إليه، والدرس الأخلاقي الذي يلقنه، والأسطورة أو الحكاية التي يضمنها.

**الخاصية السادسة:** أن الأمثال تعد من أبرز عناصر التراث الشعبي يسرا وسرعة في الانتقال بين طبقات المجتمع وبين مختلف فئاته الاجتماعية، كما أنها أشد بقاء وصفاء، لسهولة تمثلها واستيعابها من جهة، ولبنائها التركيبي وقدرتها التعبيرية التي تجعلها تعكس مختلف أنماط السلوك البشري من جهة أخرى.

حيث يصرح **بوخريص** في هذا السياق: " **أن المثل الشعبي يتميز باستمرارية حضوره وانتقاله من جيل لآخر، إضافة إلى طبيعته المتميزة بالتكثيف وبقدرته المجازية الكبيرة** ".[16]

من كل هذا العرض لخصائص الأمثال الشعبية ومميزاتها يمكن لنا أن نلخصها في عدة نقاط توضيحية تتمثل في:

- أن الأمثال الشعبية هي من أبرز عناصر الثقافة الشعبية، فهي مرآة لطبيعة الناس ومعتقداتهم لتغلغلها في معظم جوانب حياتهم اليومية وهي لا تعكس المواقف المختلفة فقط بل تتجاوز ذلك أحيانا لتقدم لهم نموذجا يقتدى به في مواقف عديدة.

- أن الأمثال الشعبية تعد كنزا من التجارب الإنسانية التي مرت بها المجتمعات في قديم الزمان، من خلال حوادث ومواقف استطاع العقل البشرى أن يصوغها بجمل قصيرة ومكثفة الفكرة تنم عن استيعاب الإنسان لهذه الحالة وإدراكها والفطنة لها، ثم صياغتها بطريقة أدبية وبلاغية.

- أن الأمثال الشعبية هي الجمل القصيرة والعبارات المختصرة التي تشبه القصة القصيرة وتتحدث عن تجربة معينة مر بها أشخاص في زمن معين، يتناولها الناس عندما يعيد الزمن نفسه على أناس جدد، بينما الوقائع التي قيلت فيها هذه الأمثال نعيشها في أي حقبة من الزمن.

- أن الأمثال الشعبية هي إحدى الخصوصيات الثقافية التي يتسم بها شعب من الشعوب، وقد ينفرد شعب ما بترديد مجموعة منها وقد يشترك فيها مع غيره من الشعوب، مع وجود اختلافات بسيطة كل حسب أسلوبه ولهجته.

## رابـــعـــا: وظيفة الأمثـــال الشعبيـــة

للمثل الشعبي وظائف جمّة، منها الوظيفة الاتصالية، الوظيفة الأخلاقية، الوظيفة التربوية والتوجيهية أو التنشئوية، والسياسية، والثقافية وغيرها من الوظائف.[17]

### أ- الوظيفة الاتصالية:

إن الوظيفة الأولى هي وظيفة اتصالية بالدرجة الأولى، حيث أن المثل في هذا التواصل يهدف إلى الإرشاد والتوجيه، بنقل تجارب السابقين إلى الخلف، والوسيلة التي يعتمد عليها في هذا الجانب هي كونه يتسم بنوع من الإبداع الفني والجمالي وبالإيجاز البليغ وهذا ما جعله بالفعل أداة تواصلية تسهم في إثراء الحوار، كأداة جمالية وأيضا ترفيهية، فالجمالية تظهر وتبرز في بعض الأمثال التي تحمل قيما جمالية كأنها ملح الكلام، والترفيهية

تظهر في الصورة التي تتكون في أذهاننا عند سماعنا المثل الشعبي، ولهذا فإن الأمثال الشعبية أنماط تعطي الاستعارة المجازية سعة المعنى، وترفع إمكاناتها الفنية، ومن ثم فإنها تعتبر مصدرا من مصادر المعرفة والثقافة اللغوية التي يعتد بها، وعلى صعيد آخر فإن الأمثال تحفظ تجارب الشعوب وتقاليدها وهي كظاهرة لغوية جديرة بأن تكون موضوعا للتحليل اللغوي والدراسات المقارنة، ومن هنا كانت المعرفة بالأمثال ضرورية، لأجل معرفة وفهم اللغة التخاطبية والتواصلية التي تستعملها الجماعة، كما أنها تسهم في معرفة الثقافة التي تسود إطار ذلك المجتمع.

**ب- الوظيفة الأخلاقية:**

تعد الوظيفة الأخلاقية للمثل الشعبي بمثابة الضابط والرقيب على كل ما يبدر من الإنسان، فيوجه سلوكه وفق ما تمليه القيم الأخلاقية للجماعة، فالمثل الشعبي يمثل خلاصة التجربة الإنسانية، ويعكس كذلك المستوى الاجتماعي للحياة الإنسانية، والتي شكلت وبلورت في هيئة مثل بسيط، إلا أن محتواه غني، فهو لا يتجاوز بضع كلمات، جاءت في صيغة أدبية مركزة، ساعدت على سهولة حفظه وتداوله، وبهذا تكون أهم وظائف المثل الاجتماعية، الوظيفة الأخلاقية، فهو كسلاح قوي يشهره العامة في مواجهة الشذوذ والانحرافات الإجتماعية أيا كانت، أو أنه سياج من القيم يضربه المجتمع من حوله ليحمي نفسه وعاداته وتقاليده، وشخصيته المتميزة، ومن هنا يأخذ المثل بعدا آخر يتعلق بالتشريع الاجتماعي، هذا التشريع الذي يحمي كيان المجتمع ووجوده ومثله الإجتماعية.

**ج- الوظيفة الترويحية:**

إن للمثل غاية أخرى تظهر من خلال أسلوبيته، تتمثل في الجانب الترويحي للوظيفة المثلية، ونجد أن بعض الأمثال تحمل جانبا قصصيا تنادريا أو فكاهيا يساهم في التقليل من أعباء الحياة أو التخفيف من أثقال الإنسان التي ترهق كاهله وتزيد أعباء يومه، إن المثل الشعبي يدخل الحياة اليومية للناس ويعايش أحوالهم وتجاربهم ومشاكلهم، ليطرحها في شكل عبرة أو أسف حاد أو دعاء ... الخ.

وبهذا فإن المثل يذهب إلى أبعد من ذلك، خاصة إذا جاء بقصة ترافق طرح العبارة الموجزة، قصة تروي وقائع وأحداث توافق الحال الحاصل بما وقع في الحكاية، وهي وظيفة عميقة لأن ترديد هذا النوع من الأمثال يشد انتباه السامع إلى التعرف على مزيد من تفاصيل القصة ومرماها أو المغزى منها، ومنها نستطيع أن نتعرف على الكثير من سمات المجتمع وفلسفته في الحياة وخصائصه الاجتماعية، وسواء كانت قصة أم لا، فإن المثل الذي نلجأ إليه يمثل إرثا ثقافيا زاخرا يستطيع أن ينهل منه كل باحث أنثروبولوجي أو اجتماعي أو أخلاقي، لتحسس أحوال المجتمع والتعرف على عاداته وتقاليده والتمثلات الاجتماعية للحكمة الشعبية، فعن طريق رواية المثل وتداوله نستكشف التناقضات التي تسود المجتمع، ونستكشف الطابع الثقافي الذي يميزه عن غيره من المجتمعات، لأن المجتمعات وإن تشابهت في خصائص ما، فهي تتميز عن بعضها البعض في الكثير من السمات والملامح الثقافية.

**د- الوظيفة التربوية والتعليمية:**

إن الوظيفة التربوية والتعليمية للأمثال الشعبية تهدف إلى تهذيب النفس، وتقويم الخلق، وتعليم الفرد طرق وسبل العيش في ظل التجربة التي يتضمنها المثل، فالأمثال تراث يحتوي على ما لو أمكن إحكام تصويره، شعرا أو نثرا، تمثيلا، أو قصصا، لكان من خير الأدوات للضبط الاجتماعي الذي لابد منه لتنشئة الأفراد منذ طفولتهم تنشئة اجتماعية سليمة، إنها تمارس وزنا ثقيلا من هذه الناحية باعتبارها تعبر عن تجارب الأسلاف وعن خبرتهم في الحياة، يتعلم من خلالها الفرد كما يتعلم من القصة أو التراث بصفة عامة مختلف الأفعال والممارسات التي يقر بها المجتمع، فيتربى أفراده على قيم ومعايير اجتماعية، ابتداء من الأسرة.

**ه- الوظيفة الاجتماعية:**

إن الأمثال الشعبية ظواهر اجتماعية موجودة قائمة في المجتمع، وتسبق وجود الأفراد، وتبقى بعد فنائهم، وهي تسري بين الناس فتظهر على أقلامهم، وتتناثر على ألسنتهم، وتكون دستورا لهم غير مكتوب يأخذون به معاملاتهم بعضهم مع بعض.

بالإضافة إلى ذلك فهي تلعب دور المرآة التي تعكس عادات وتقاليد المجتمع الذي يتبناها، وتبين الوجهة الصائبة لمن لم يخبر الحياة ومصاعبها، كما أن الأمثال الشعبية تكشف الجوانب الرديئة التي حلت بالمجتمع نتيجة لقلة التربية التي تسنها العادات والتقاليد الإجتماعية، أو التراث الإنساني، فالأمثال تواجه كل ما هو غير مألوف، وتحبذ أو تمدح المواقف الملائمة والمرغوبة، والموافقة لسنن وأعراف المجتمع، إنها تختصر تجارب الأجيال عندما تقدم التجربة جاهزة، لجيل خبر الحياة ومصاعبها، وتقديمها لجيل ينشأ على الأخذ، ورواية ما تركه الأجداد، فتنتقل من السلف إلى الخلف، من الآباء إلى الأبناء، متوارثة بالتعاقب وكأنها دليل مختصر يوضح المعالم لتجارب السابقين، بأسلوب ميسر ومستوعب.

**خامســـا: أبعاد المثل الشعبي**

إن المثل الشعبي يحمل في طياته أبعادا كثيرة منها:

**أ- البعد الأدبي للمثل الشعبي:**

إن الأمثال الشعبية هي عبارات وجمل لها قيمة أدبية كبيرة، كما أنها ترتبط كثيرا بالروايات الشعبية، وقد أدرك العرب الأوائل قيمة هذا الكنز اللغوي البليغ فجمعوها في كتب للأمثال اعتنت بذلك، نذكر منها (مجمع الأمثال) للميداني، (المستقصى في أمثال العرب) للزّمخشري، (كتاب العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي، (جمهرة الأمثال) للعسكري، (الأدب الكبير) لابن المقفع، وغيرها من الكتب؛ فقد حرص كثير من الأدباء واللغويين على تجميع الأمثال الشعبية المعروفة في زمنهم خوفا عليها من الضياع والاندثار، فقد اعتبروها إرثا لغويا تركته أجيال سبقت زمانهم وزماننا وتناقلها الناس عبر الأجيال، إنها حكمة الشعوب التي نستخلص منها كثيرا من الحكم والنصائح والإرشادات والمواعظ التي تفيد المجتمع وتساعد على بنائه بناءا سليما.

**ب- البعد النفسي الاجتماعي للمثل الشعبي:**

إن الجانب النفسي للأمثال الشعبية يتبين في أنه يؤدي دورا يعبّر عن آلام وآمال مكبوتة أو تعويض عن واقع، كما أنها وسائل ترفيهية تنسي الهموم اليومية وحياة الحرمان والذلّ والرتابة. وقد تدخل فيها الغيبيات والإيديولوجيات والخرافات والاستثناءات العقلية وكذا نفسية الشعب وعقليته وتلك اللحظات التاريخية السائدة بمفاهيمها وإيديولوجياتها، كما أنه ينقل العواطف الإنسانية والطموحات والاحتياجات الإنسانية.

أما فيما يتعلق بالبعد النفسي الاجتماعي الذي يحيط بالمثل الشعبي فيتمظهر في تعبيره عن خلجات الشعب النفسية والاجتماعية ومداركه الوجدانية والعقلية، فـــ" **الأمثال الشعبية لا تكشف الخبايا النفسية لكل شعب فحسب، بل هي بمثابة قوانين اجتماعية شبه ملزمة تسن المعايير التي يخضع لها المجتمع**". (18)

فالمثل الشعبي في هذا السياق هو وسيلة تنفيسية غايتها تفريغ وإسقاط المكبوت، والتعرف على البناء المعرفي للجماعات الاجتماعية المكونة للمجتمعات معرفة داخلية والتغلغل في خباياها النفسية، كما أنه يعد وسيلة هامة تسهم في بناء شخصية الأفراد وتكوينها. حيث باستعماله أو تداوله يعيد إنتاج وقائع اجتماعية وحالات نفسية جديدة، باعتباره عنصرا من عناصر البناء المعرفي التي يتشرّبها الأفراد فتؤثر في نفسيتهم، وبذلك يتبين أن المثل هو شكل أدبي هادف خاضع لقيم المجتمع ومثله ومسلّماته وتقاليده وعاداته، ينقلها بقوة وفعالية من جيل إلى جيل فتبقى قوية وفاعلة إلى درجة أن الإنسان يعجز أحيانا عن تغيير أعمال وعادات يقوم الناس بها من غير أن يعلموا الأسباب التاريخية التي دفعت إليها، وهذا لأنها خضعت لنفسية الشعب وتأصلت في ذهنيته.

ويمكن أن يترجم هذا البعد النفسي الاجتماعي للمثل الشعبي في عدة مواضيع محورية يتمثل أهمها في:

– **العلاقات الاجتماعية:** لقد شخص وحدد المثل الشعبي أنواعا من العلاقات الاجتماعية كعلاقة الزوج بزوجته، والحماة والكنّة والعلاقة القرابية، وتحديد الصفات المرغوبة في الزوج والزوجة، وكذلك إبراز السمات الإيجابية والسلبية للرجل والمرأة لتعزيز الجوانب والسمات الايجابية وتجنب ما هو سلبي منها، فهي بذلك إنما ترسم خطوطا عامة ليسير الأفراد بموجبها، لكونها ناتجة عن تجارب إنسانية واقعية نابعة من الواقع الاجتماعي المعاش، بعيدة كل البعد عن ما هو خيالي، وذلك من خلال ما يرسمه المثل الشعبي.

– **وسيلة للضبط الاجتماعي:** تتمثل في كونه الضمير الجمعي الذي يعكس كل ما له صلة بالمجتمع، ويعبّر عن تجربة الجماعة وموروثاتها وتطلعاتها، كما يعبّر عن التجربة الجماعية في مدلولها الإعتقادي والاجتماعي التي لا غنى عنها في حياة أصحابها، وقد تعمل هذه التجربة على ترسيخ معتقد أو قيمة أخلاقية، أو تعليم من يتلقاها بعض المعارف الشعبية أو تأكيد قيمة أو اعتقاد في إطار الحياة الشعبية، وهنا قد يمارس المثل الشعبي وزنا ثقيلا على المجتمع كالدين والعرف الاجتماعي.

– **وسيلة لتحقيق العدالة الاجتماعية:** قد نلمس من خلال خطاب الأمثال الشعبية نوعا من الرفض والتمرد على صور الظلم والاستبداد، كما قد نلمس أيضا محاولة البحث عن سبل لتحقيق العدالة الاجتماعية، إذ كثيرا ما عرض المثل الشعبي صورا من أشكال الظلم والمشاكل الاجتماعية التي تعرض لها الفرد، والتي تحمل في ثناياها أبعادا متباينة كالأبعاد السياسية والاقتصادية.

**ج- الأبعاد الاجتماعية الثقافية للمثل الشعبي:**

يقول **بن هدوقه:** "... **فالمثل في تعبيره عن الحياة الاجتماعية يأتي في مقدمة أشكال التعبير الأخرى، كالقصص والشعر والأساطير والألغاز والأحاجي...، لأنه يصور بصفة مباشرة، حالات واقعة، تشكل بذاتها عينات وشرائح، يتكون من مجموعها النسيج المجتمعي الذي يقوم أساسا على العلاقات القائمة بين الناس في تعاملهم، أيام المعسرة والميسرة، والتفافهم حول مُثُل ومقدسات وقضايا مشتركة، تجعل منهم وحدة متميزة، لها خصوصياتها المحلية، وامتداداتها الانتمائية لحضارة معينة**".[19]

فالمثل إذن، فوق كونه خلاصة لتجارب إنسانية طويلة، وفوق جماله اللفظي وبلاغته، فهو صورة مباشرة لأحوال المجتمع المتداول فيه، يظهر دوره الثقافي كحامل ومدعم ومنتج للأفكار والرؤى والقيم المشكلة للمركبات الثقافية أو الكل الثقافي من دين وعرف وتقاليد وتاريخ ومعتقدات المجتمع بتناقضاتها.

إن البعد الاجتماعي الثقافي للمثل الشعبي يتلخص في كونه حافظ لتراث الأمة الثقافي والفكري الذي ينتقل بفكر الأمة وعاداتها وتقاليدها وحكاياتها وقصصها وأنسابها ومعتقداتها من جيل إلى جيل، فهو كالمرآة أو الدليل الذي نكتشف من خلاله ثقافة المجتمع بشقيها المادي والمعنوي. إن الدور الاجتماعي الثقافي للمثل الشعبي لا يزال مطلوبا باعتباره أداة ثقافية حيوية فاعلة في خدمة الجماعة الإنسانية، فالجماعة التي أضاعت أو فرّطت في موروثاتها الثقافية، هي جماعة تابعة، فانية، ضائعة، ثقافيا، تابعة لمجموعات أخرى.

**د- البعد الاجتماعي الأخلاقي للمثل الشعبي:**

إن الأخلاق الفاضلة هي قيم اجتماعية متفق عليها من قبل أفراد المجتمع، لما لها من تأثير كبير على المجتمع وتماسكه، وهي قيم جماعية تبنى على أساس منها علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، في كل نشاط يقوم به سواء أكان سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا أو فكريا، حيث لابد من وجود معايير يحتكم إليها الناس في تعاملهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض، ليصلوا إلى المستوى المنشود من الرقي والتقدم في مجتمعهم، لأنه إذا ترسّخت مكارم الأخلاق في المجتمع، يطمئن كل إنسان إلى أخلاقيات من يتعامل ويتعاون ويعمل معهم، فلا يخشى غدرا ولا خيانة أو غشا، فتعم الجميع ثقة متبادلة وترابط بين أفراد المجتمع وتبنى العلاقات والمعاملات على أسس متينة وثيقة ثابتة من الثقة والمحبة والتقدير.

على هذا فإن المثل انعكاس طبيعي لحياة الإنسان وأخلاقياتها، والمثل وهو يعكس هذه الحياة ومتاهاتها لا يرددها دونما هدف واضح ومقصود، وإنما هو يعكس معايير السلوك الاجتماعي الأخلاقي للمجتمعات، حيث تقول **بلعربي** في هذا السياق: "... **أن ما يربطنا بالمثل ليست الألفاظ أو الجملة المعبرة عنه وإنما الموضوع الذي يرمز إليه، والدرس الأخلاقي الذي يلقنه، والأسطورة أو الحكاية التي يضمنها، فهذه الأمثال تشكل مجموعة من المعارف المعبرة عن بنية اجتماعية واقتصادية معينة وعن نسق تقويمي خاص بهذه البنية**".[20]

وهكذا فإن الأمثال الشعبية قد احتوت على الكثير من الأخلاق الفاضلة، لذلك فإن المتصفح للأمثال الشعبية الخاصة بالجانب الأخلاقي في المجتمع يمكن أن يلاحظ أنها تناولت ما هو مقبول وما هو مرفوض كما يلي:

– **السلوك الاجتماعي المقبول:** إن المجتمع من خلال أمثاله إنما يدعو أفراده وينصحهم بالالتزام بالأخلاق الفاضلة، على اعتبار أنها سبب في سعادة الفرد والمجتمع، والسلوك المنضبط مع القيم الأخلاقية، ومن هذه الأخلاقيات الصدق: الصبر، الشجاعة، الكرم، والإحسان.

– **السلوك الاجتماعي غير المقبول:** إن عدم الالتزام بمكارم الأخلاق، وعدم تجنب الرذيلة منها، تجعل الفرد عرضة للنقد الاجتماعي، ومن هذه الأخلاقيات: النفاق، الكذب، الفضول، الحيلة والتملق، الثرثرة، والبخل.

وعلى هذا فإن نواتج الاعتقادات والتصورات والأقوال والتصرفات التي ترجمت في خطابات الأمثال الشعبية، جرى تصنيفها عبر رحلة البشرية الطويلة في قائمتين متضادتين إحداهما صالحة والأخرى فاسدة، وكلاهما تعكسان السلوك الاجتماعي الذي ينم عن المعايير الأخلاقية لكل مجتمع وتصنيفاتها.

**ه- البعد السلوكي للمثل الشعبي:**

إن المثل الشعبي لا يعتبر لونا من ألوان الفنون الشعبية فقط، ولكنه يحمل تأثيرا بالغا على سلوكيات وممارسات الأفراد داخل مجتمع معين، أحيانا قد يكون هذا التأثير ايجابيا، وفي بعض الأحيان يكون أثره سلبيا يضر بالفرد وبالتالي يضر بالمجتمع الذي يعيش فيه، فالأمثال الشعبية تساهم بشكل غير مباشر في تشكيل أنماط واتجاهات المجتمع، وهي تحمل ملامح شعب كامل كأسلوب معيشته أو معاييره الأخلاقية ومعتقداته الدينية، كما أننا لا نغفل أنها قد دخلت في جميع مجالات الحياة مما جعلها محور اهتمام عدد كبير من العلماء والباحثين، حيث تقول **بلعربي** في هذا السياق: "" **لم يعر المؤرخون للأمثال اهتماما بالغا ولا علماء الاجتماع ما عدا الأنثروبولوجيين الذين وجدوا فيها معجما للآداب والتأديب ودليلا للسلوكيات والممارسات الفردية والجماعية وأداة للتأهيل المستمر للحياة** ".[21]

إن ما يمكننا التسليم به هو أن معايير السلوك ومقنناته التي تسود مجتمعا ما، ليست وليدة اجتهاد وقتي أو قرار فوقي، وإنما هي حصيلة ثقافة ممتدة امتداد حياة المجتمع، وتراكم خبراته التي زادتها الأيام والسنين جلاء ووضوحا، وعمقا واتساعا، بحيث غدت تمثل وجهات نظر خاصة بهذا المجتمع أو ذاك وتشمل وجهات النظر هذه، عقيدة المجتمع، ومفاهيمه العامة للحياة، وقيمه وأخلاقه، وحياته الاقتصادية والسياسية ...الخ.

ونفس الفكرة تنطبق على ما صرح به **حسن حنفي**، فيما يخص التراث الشعبي بشكل عام حيث يقول: "**مازال التراث القديم بأفكاره وتصوراته ومثله موجها لسلوك الجماهير في حياتنا اليومية**".[22]

**خلاصة:**

إن الأمثال الشعبية تعبر عن المخيال الاجتماعي للمجتمع، فهي تختزن في مدلولاتها صورا عن سلوكيات البشر تجاه ذواتهم وتجاه الآخرين، فالذاكرة الشعبية تقوم مقام الرقيب في استعمالها وتداولها الأمثال على سلوك الأفراد، وأيضا تحفظ مادة المثل الشعبي من الضياع والاندثار، لتبقى جزءا من الهوية الثقافية الوطنية لأي مجتمع

من المجتمعات مجسدة في هيئة جملة قصيرة أو حتى طويلة تحمل رموزا ودلالات عميقة عمق تجربة الأسلاف الذين ينقلون كل ما عايشوه إلى الخلف.

فالتجارب التي تحملها الأمثال الشعبية تثبت بشكل واضح هذا الاتجاه كـــخلاصة تجربة إنسانية أو اجتماعية غدت نموذجا لنمط من التصرف أو السلوك، فيلخص التجربة التي تحمل عظة وتذهب مثلا يضرب في مناسبات مختلفـــــة. وبهذا فإن الأمثال الشعبية تعتبر كوصفات اجتماعية جاهزة تعالج مواقف الحياة الاجتماعية في صيغ مختصرة معبرة عن التجربة المشابهة للموقف الذي يسايرها، وإذ كانت وصفات جاهزة فإن استعمالها وتداولها يساهم في الحفاظ على هذا الكيان التراثي للمجتمع الذي يتبناه.

**الهوامش:**

(1) ابن الأثير، ضياء الدّين (1959). **المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر**. تقديم وتعليق: الحوفي أحمد وطبانة بدوي، ج1، القاهرة: دار نهضة مصر للطّبع والنّشر، ص 54.

(2) عدلاوي، علي بن عبد العزيز (2010). **الأمثال الشعبية ضوابط وأصول (منطقة الجلفة نموذجا)**. الجلفة: دار الأوراسية. ص44.

(3) بن هدوقة، عبد الحميد (2007). **أمثال جزائريّة: أمثال متداولة في قرية الحمراء ولاية برج بوعريريج**. الجزائر: دار القصبة للنشر. ص11.

(4) خدوسي، رابح (2002). **موسوعة الأمثال الجزائرية**. الجزائر: دار الحضارة. ص05.

(5) عدلاوي، مرجع سبق ذكره، ص44.

(6) الخوارزمي، أبي بكر محمد العباس (دس ن). **الأمثال**. القاهرة: عصمى للنشر والتوزيع. ص05.

(7) بن فرحات، فتيحة (2008-2009). **صورة المرأة عبر الأدب الشعبي الجزائري وتمثلات الحضور الأنثوي فيه (دراسة وتحليل محتوى ثلاث أشكال من الأدب الشعبي الجزائري: الشعر الشعبي والحكاية الشعبية والأمثال الشعبية)**. دكتوراه علوم غير منشورة، قسم علم الاجتماع، جامعة الجزائر، الجزائر.

(8) أبو علي، محمد توفيق (1988). **الأمثال العربيّة والعصر الجاهلي: دراسة تحليليّة**. بيروت: دار النّفائس. ص47-48.

(9) بن هدوقه، مرجع سبق ذكره، ص13.

(10) أبو علي، مرجع سبق ذكره، ص49-48.

(11) مرتاض، عبد الله (1987). **عناصر التراث الشعبي في "اللاز" دراسة في المعتقدات والأمثال الشعبية**. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية. ص100.

(12) بوخريص، فوزي (2004). **صورة المرأة في الأمثال الشعبية: المرأة في مؤسسة الزواج كنموذج**. فكر ونقد: مجلة ثقافية شهرية، الرباط، 63، 53-65. ص54.

[13] بلعربي، عائشة (1990). **صورة الفتاة في الأمثال الشعبية: مقاربات سلسلة بإشراف عائشة بلعربي ضمن كتاب فتيات وقضايا**. الدار البيضاء: نشر الفنك. ص14.

[14] المرجع نفسه.

[15] المرجع نفسه.

[16] بوخريص، مرجع سبق ذكره، ص54.

[17] بن فرحات، مرجع سبق ذكره.

[18] بوخريص، مرجع سبق ذكره، ص56.

[19] بن هدوقه، مرجع سبق ذكره ، ص13.

[20] بلعربي، مرجع سبق ذكره ، ص14.

[21] المرجع نفسه ، ص13.

[22] أفرفار، علي (1996). **صورة المرأة بين المنظور الديني والشعبي والعلماني: فكرة العورة والضلع الأعوج**. بيروت: دار الطليعة. ص55.